أزمة القراءة في أوساط التلاميذ والأساتذة

مربون يدعون إلى تخصيص حصص أسبوعية لتدريب التلاميذ على الاستفادة من خدمات المكتبة لإكسابهم مهارة التعلم الذاتي

يشكل العزوف عن القراءة واحدة من أخطر المعضلات التي يعانيها تلامذتنا راهنا، وذلك لما للقراءة من منافع تنعكس إيجابا على مسار هؤلاء التلاميذ حاضرا ومستقبلا.

والمقصود بالقراءة هنا هو «القراءة الحرة» أي قراءة الكتب والموضوعات التي يختارها القارئ بنفسه، دون أن يجبره عليها أحد.

ويتفق رجال التربية وعلماء النفس على أهمية الأثر الذي تتركه القراءة في السنوات الأولى من حياة الطفل، ويعتبرونها مسؤولة إلى حد كبير عن تحديد ملامح شخصيته، إلى درجة أن هناك من ربط بين القراءة والنجاح الدراسي.

وهذا النوع من القراءة، هو أمتع القراءات وأكثرها إفادة، وعليه تعول المدرسة الحديثة في تحقيق أهدافها، لأنه بوابة التكوين الذاتي، الذي يعد عنصرا تربويا أساسيا للوصول إلى آفاق أرحب للمعارف والمعلومات، كما ينمي الخيال والقدرات الحسية الحركية... ويجعل المتعلم مواطنا كفؤا، واعيا، متفاعلا مع محيطه. بل إن هذه القراءة تكسب المتعلم ثروة لغوية، وترتقي بفهمه، وتوسع مداركه، وتسمو بسلوكه، وتسهم في بناء شخصيته.

وحسب كثيرين، فإن العزوف عن القراءة هو ما يفسر قلة ما يطبع وما يباع من كتب ومجلات وجرائد... كما يفسر تراجع عدد المكتبات، وضعف التحصيل لدى التلاميذ في المواد كافة.

وإذا كان البعض يعزو ظاهرة عزوف التلاميذ عن القراءة إلى انتشار وسائط أخرى كالمذياع والتلفاز والأنترنيت، فإن آخرين يدحضون هذا المبرر بدليل أن هذه الوسائل لم تشكل بديلا عن الكتاب، ولم تمنع تلاميذ وشعوب بلدان أخرى من مواصلة القراءة، بل يرون أنها كانت سببا في تحفيزهم على القراءة ومضاعفة إقبالهم عليها.

لذلك، لا غرابة أن يذهب رأي ثالث إلى أن سبب العزوف عن القراءة يعود أساسا إلى سياسة رسمية اتبعت طيلة سنوات وعقود، واستهدفت الثقافة والمثقفين، والكتب والكتاب، وأعلت من شأن ذوي الجاه والمال والسلطة وإن كانوا أميين أو أشباههم. ويضيف أصحاب الرأي نفسه، أن الدولة اتبعت، طيلة سنوات وعقود، سياسة تعليمية رفعت من شأن الذاكرة والنقل على حساب العقل والمنطق، كما نهجت سياسة إعلامية سعت إلى خلق قدوات ونماذج تافهة ومسطحة، من تمة أيضا، تهميش المكتبات المدرسية، وقلة عدد العمومية منها، وفقرها، وما تعيشه من بؤس وحرمان، ناهيك عن ارتفاع أسعار الكتب، وتهميش وسائل الإعلام لها ولكتابها.

لهذا يرى بعض من استقت «الصباح» آراءهم أن خلق جيل قارئ رهين بإرادة سياسية تسعى إلى إعادة الاعتبار إلى «الموارد البشرية» والثقافة والمثقفين، وبتنشيط الحياة الثقافية بدعم طبع المنشورات وإقامة الندوات والمعارض. وحث المتعلمين على القراءة، وتشجيعهم عليها، ليصقلوا شخصياتهم، ويصبحوا قادرين على مواكبة العصر بثقة وجرأة.

وإذا كان البعض يحمل المدرسة مسؤولية إقبال التلاميذ على القراءة أو نفورهم منها، باعتبار أن للمدرسين دورا في ذلك، فإن آخرين يعتبرون أن الطفل يأتي إلى المدرسة مزودا بقدر من الخبرات والتجارب، وبقسط من القدرات التي اكتسبها خلال سنوات عمره الأولى، وأن القراءة مرتبطة بهذا القسط.

غير أننا نعتقد أن التنشئة الاجتماعية والثقافية للطفل تتدخل فيها عوامل متعددة أهمها وسائل الإعلام والاتصال والأسرة والمدرسة... كما نعتقد أن الكتاب لم يعد وحده مصدر المعلومات، بل تشاركه المصادر سالفة الذكر، لذلك، فإن الخدمة المكتبية للأطفال، العامة منها والمدرسية، تعد من الخدمات الأساسية التي يجب توفيرها لهم خلال فترة تكوينهم الأولى، على أن المكتبة المدرسية تشكل خط المواجهة الأول بالنسبة إلى الطفل، فهي التي تحدد علاقاته المستقبلية مع عالم الكتب والمكتبات، بالاقتراب منها أو الابتعاد عنها.

من تمة، ينبغي أن يتعود الطفل على القراءة الحرة بأسلوب شيق لطيف، لتصبح القراءة الحرة بالنسبة إليه شيئا ممتعا ومسليا، من هنا أهمية دور المدرسين في تدعيم القراءة الحرة، والتشجيع على اقتناء الكتب، ومن هنا أيضا، تكتسب المكتبة أهمية بالغة لتعويد الطلاب على القراءة والاطلاع، وتزويدهم بالمعارف العامة، وتعريفهم بكيفية الاستفادة منها، كما أن على المدرس أن يكون قدوة لتلاميذه، وأن يخلق الدافع نحو القراءة الحرة والاطلاع، بتوجيههم إلى إعداد أبحاث بالاستعانة بالقراءة والكتب، وبتشجيعهم عليها وعلى اقتناء الكتب لكي يستطيعوا جمع المزيد من المعلومات حول موضوعات دروسهم، ومن تم لا يستطيعون الاستغناء عن المكتبات الشخصية.

لذلك ينبغي الاهتمام بالمكتبة المدرسية حتى تخدم التلاميذ والمدرسين، وتقدم لهم ما يدعم برامجهم، ويرفه عنهم ويثقفهم، وكي تشجعهم على القراءة الحرة، وتغرسها فيهم، وتدفعهم إلى تكوين مكتبات شخصية تكسبهم مهارات التعلم الذاتي والتفكير العلمي والابتكاري.

ولأن المكتبة المدرسية عامل من عوامل التربية والتعليم والبحث والتثقيف والتكوين الذاتي، فقد اعتبرتها المجتمعات الحديثة بنية أساسية داخل المؤسسة التعليمية، لذلك، ينبغي أن تتحول هذه المكتبة إلى مركز ثقافي مشع داخل المدرسة، لأنها أكثر أنواع المكتبات عددا، وأوسعها انتشارا، ولأن الفرد يتعامل معها في أهم مراحل تكوينه. من تم، فإنه ينبغي، توعية التلاميذ بأهميتها، وإقامتها بكل المؤسسات، على أن تكون في موقع مناسب، هادئ، مع تطوير المكتبات الموجودة في المدارس القديمة، والاهتمام بأثاثها (رفوف، مقاعد، طاولات...) وبتجهيزاتها ونظافتها. وتزويدها بما يكفي من مراجع وكتب وموسوعات ومواد سمعية بصرية، وتخصيص ميزانية سنوية لتحيينها، وتعيين قيمين أكفاء عليها، وضمان تكوين مستمر لهم.

وبموازاتها، يجب الحرص على تكوين مكتبة منزلية تتضمن رفوفا خاصة بالطفل، على أن تكون مليئة بالجديد والجذاب، وتمكينه من ترتيبها، وتنظيمها، وتهيئة مكان مريح للقراءة، وزيارة المكتبات العامة، واصطحاب الأطفال إليها، وشراء الكتب والقصص التي يحبونها. كما يجب إنشاء مكتبات عامة في مختلف الأحياء السكنية، على أن تزود بكافة المعارف والعلوم والمواد المناسبة للقراءة الحرة، وتعيين قيمين متخصصين عليها، يستخدمون الوسائل الكفيلة بتحبيب القراءة للأطفال، وتشجيعهم عليها، وتفعيل دور وسائل الإعلام الحديثة في توضيح دور الأسرة الحيوي والهام في تعليم الأطفال القراءة، وتنمية الميول إليها.

إكساب التلاميذ مهارات القراءة كفيل بإغناء معارفهم (أرشيف)

كما يدعو بعض المربين إلى تخصيص حصص أسبوعية لتدريب التلاميذ على الاستفادة من خدمات المكتبة، والاستخدام المثمر لمحتوياتها، لإكسابهم مهارة التعلم الذاتي.

على أن تحقيق كل هذا رهين، حسب البعض، بقدرة القيم على المكتبة على تحمل هذه المسؤولية، وعلى الوعي بأهدافها، والإيمان بوظيفة المكتبة داخل المجتمع. لأن مسؤولية ترغيب التلميذ في ممارسة الأنشطة داخل المكتبة، وجعله مرتبطاً بها طوال فترة الدراسة وبعدها، دون انقطاع تقع عليه. كما عليه أن يسهر على تشكيل نواد للقراءة في موضوعات مختلفة، هذا دون أن ننسى الاهتمام بجمالية فضاء المكتبة المدرسية وبما تحويه من أثاث وتجهيزات، وذلك حتى تجذب إليها اهتمام التلاميذ ومدرسيهم. كما يجب إقامة معارض دورية للكتب والمواد المكتبية بهدف التعريف بها، وتشجيع التلاميذ على متابعتها، واكتشاف محتوياتها، لتعزيز اهتماماتهم القرائية.

علي بنساعود (الرشيدية)

الأنترنت والأقراص المدمجة تقف حائلا بين الشباب والقراءة

أجمع كل الآباء وعدد من الأطر والباحثين في طنجة، أن تدني مستوى الانجذاب إلى الكتاب والإحجام عن القراءة من قبل الأطفال والشباب، ناجم، بالأساس، إلى التطور السريع لوسائل الاتصال والمعرفة، من فضائيات وانترنت وأقراص مدمجة تعطي للراغب في المعرفة فرصة الاطلاع بواسطة لمسة زر خفيفة، وكذا سطوة انشغال الآباء بالحياة المادية عن الحياة العقلية والفكرية، فضلا عن عوامل أخرى عديدة ساهمت في تشتت العقلية الأسرية ولم تعد تمنح الفرد والجماعة الوقت للمراجعة والتوجيه والتصحيح.

ويرى كل الذين التقت بهم «الصباح» أن العزوف عن القراءة، والابتعاد عن المطالعة، والنفور من المكتبات سواء العامة أو الخاصة، ليس بسبب ارتفاع أسعار الكتب أو المجلات، أو نتيجة تراكم المناهج التعليمية، بل بسبب تعدد وسائل اكتساب المعلومة، التي لم يعد معها الكتاب مصدرا وحيدا للعلم والمعرفة، إذ زاحمته وسائل إعلام حديثة تجمع بين متعة القراءة والإثارة والفائدة، كالتلفزيون والفيديو والأنترنت وغيرها.

ولم يخف غالبية الآباء استياءهم وحزنهم حين هجر أبناؤهم قراءة الكتب ذات المضمون العلمي أو الأدبي، والتجأوا إلى قراءة الصحف الخفيفة المسلية ووسائل الإعلام بتباين أشكالها وتعدد أصنافها، متخلين بذلك عن الثقافة الجادة التي تساهم، بحسب رأيهم، في بناء شخصيتهم وحمايتهم من الوقوع في الأخطاء الشنيعة سواء في طريقة النطق أو الكتابة، مؤكدين (الآباء) ضرورة البحث عن وسائل تصب في العمل على العودة إلى قراءة الكتب المفيدة والزيادة من كفاءتها.

وفي هذا السياق، ذكر رشيد أمحجور، مندوب وزارة الثقافة بطنجة، أن موضوع ضعف القراءة عند المتمدرس له أكثر من أهمية، ولعله هو مفتاح علاقة التربية والتعليم بالثقافة، التي قد تبدأ بالقراءة لتنفتح على الاهتمام أو ممارسة الفنون، سواء كانت مكتوبة أو مسموعة أو مرئية، مبرزا أن الإشكاليات الراهنة التي تعرفها القراءة لدى الشباب بصفة عامة والطفل بصفة خاصة، لها أسباب عديدة أتت بها رياح تحولات العالم الجديد، الذي يجب أن تدرك وتقيم من أجل مواجهتها والتكيف معها حسب ما تقضيه الحاجة الإيجابية لبناء مجتمعي في حالة مغرب اليوم.

وقال أمحجور إن «الإعلاميات والانترنت والألعاب الإلكترونية والفضائيات. هي أمور بقدر مالها من إيجابيات لها سلبيات في غاية الخطورة، خاصة إذا لم تتوفر لدينا ثقافتها وأساليب التوجيه لممارستها، باعتبار صورها وتراكماتها السريعة عند التلقي تساهم في تنويم الحس النقدي وليس إنعاشه وتحريكه، بالإضافة إلى مواضيع لا تناسب الطفولة أو المراهقة. إلا أن ذلك لا يعد سببا فريدا ومباشرا في النقص الفظيع في القراءة عند التلاميذ أطفالا وشبابا، بل إن المعضلة ذاتها موجودة أيضا داخل جل الأسر، التي نجد في غالب الأحيان نسبة ينعدم فيها الحس الثقافي، إما لوضعها الاقتصادي الضعيف أو المتوسط، أو باعتبارها مهتمة بجمع الأموال وتبذيرها في الاستلاب».

وشدد المسؤول عن الثقافة بالمدينة، على ضرورة التوقف بكل تحكم وحكمة عند الانتاجات المدرسية من كتب ومناهج، والتفكير في ما يمكنه أن يكون بالفعل تربويا وتعليميا بدون إثقال كاهل أولياء الأمور ماديا والتلاميذ معنويا، مؤكدا على الأخذ بفكرة «ما قل ودل» مع منهجية «التكرارية» حتى يستفيد التلاميذ بسرعة، ويفسح لهم المجال للتثقيف والتنوير والإبداع، وهو النهج الذي أصبح يؤخذ به حتى لدى كبريات المدارس والمعاهد العليا العالمية.

وختم أمحجور حديثه مع «الصباح» بالقول إن «الاهتمام بالشأن الثقافي والسياسة الثقافية عموما أحد الأسباب المهمة في الرفع من نسبة القراءة لدى الأطفال والشباب وغيرهم، وذلك بالرفع من ميزانية وزارة الثقافة ومديريتها في الكتاب والقراءة العمومية، حتى تتمكن من إحداث خزانات عامة وأخرى حديثة، والقيام بأنشطة ثقافية وفكرية تهم القراء والقراءة، بالإضافة إلى إبرام اتفاقيات عملية بين وزارة الثقافة ووزارة التعليم ووزارة الشبيبة والرياضة ووزارة الاتصال، ليعملوا جميعا على سن برامج عملية لدعم الكتاب والمؤلفين، وكذا التنسيق مع الجماعات الحضرية والقروية لإحداث بنيات أساسية لترويج القراءة، باعتبارها أساسية للتنمية البشرية والمجتمعية، وهذا ما لا نراه على أرض الواقع إلا نادرا».

ولم يخرج محمد بن شريف، أستاذ باحث ومدير نشر جريدة محلية، عن السياق ذاته وأكد أن ظاهرة العزوف عن القراءة تعود بالأساس إلى انتشار وسائل الاتصال الحديثة وغزوها للبيوت ومراكز التكوين والتأهيل، بما في ذلك المدارس والجامعات، فضلا عن وجود عدد كبير من مقاهي الانترنت بجل الأحياء الراقية والفقيرة على حد سواء، التي يلجها الأطفال في غياب أي مراقبة من قبل الآباء وأولياء الأمور.

وذكر بن شريف أن الإحجام عن القراءة، لا سيما المتصلة بالقراءة التثقيفية، من أكثر المشكلات شيوعا لدى الأطفال والشاب ذوي صعوبات التعلم، وأرجع ذلك إلى التزايد المهول والمخيف من وسائل التسلية والترفيه التي تستهدف صغار السن والأطفال من مختلف الفئات العمرية على وجه العموم، لاسيما الألعاب الإلكترونية والرسوم المتحركة المنسوخة على الأقراص المدمجة، بالإضافة إلى الأفلام الموجهة للصغار على عدد من الفضائيات، التي أصبح معها عقل الطفل مهيأ لاستقبال ما يوجه إليه من معلومات، دون النظر إلى مصدرها أو فائدتها أو أثرها.

وبعد أن استعرض الباحث جملة من الأسباب التي تقف حائلا بين الشباب والقراءة، سرد بعضا من الحلول التي قد تكون ناجحة لترسيخ مبدأ القراءة في نفوس الفتية وغرسه في ذواتهم، ولخصها في تطوير المناهج وتحسين الكتب المقررة لإذكاء حب القراءة والمطالعة في نفوس الطلاب، مع وضع مقرر للقراءة الإضافية في المراحل التعليمية الأولى، وكذا الاعتناء بمكتبة المدرسة وتزويدها بالكتب المتنوعة الجذابة، بالإضافة إلى اختيار الأقران الذين يحرصون على القراءة واقتناء الكتب لغرس هذه العادة عند الأطفال منذ الصغر.

المختار الرمشي (طنجة)

قرنفل: ضرورة خلق مكتبات بالمؤسسات التعليمية لتنمية الفعل القرائي

أستاذ علم الاجتماع قال إن القنوات الفضائية أصبحت تنافس الكتاب وتحد من انتشاره

قال حسن قرنفل، أستاذ علم الاجتماع، إن الأبحاث والاستبيانات التي يملؤها الأساتذة لا تعكس الصورة الحقيقية لنسبة المقروئية، مشيرا إلى أن سوق الكتاب تعرف ركودا كبيرا. وأكد قرنفل أن القنوات الفضائية أصبحت تنافس ترويج الكتاب خلاف سنوات الستينيات والسبعينيات التي كان فيها البث التلفزيوني محدودا جدا .وفي ما يلي نص الحوار:

● هل ما زال الإقبال على الكتاب حاضرا في صفوف الأساتذة؟

● في الواقع من الصعب الإجابة عن هذا السؤال، بشكل قطعي، في غياب دراسات وإحصائيات دقيقة، لأن الأبحاث والاستبيانات التي تملأ من طرف الأساتذة، لا تعكس الصورة الحقيقية لواقع القراءة بالمغرب، وإذا عدنا إلى أرقام الكتب الموزعة ووقفنا على حقيقة المكتبات، سنعلم أن سوق الكتاب بشكل عام تعرف ركودا كبيرا من حيث التوزيع والبيع، ومن هنا يظهر أن الإقبال على اقتناء الكتاب وبالتالي قراءة الكتاب، سواء في صفوف الأساتذة أو عامة الناس، لا يشجع وأن الأمر ليس على ما يرام، إذ نجد الإقبال كبيرا على كتب الطبخ وكتب المشاهير والكتب التي تتطرق إلى بعض الأحداث العابرة وفضائح الفنانين، أما الكتب ذات الصبغة العلمية والفكرية، فقد أصبحت سلعة كاسدة ولم تعد تعرف إقبالا من طرف القراء عامة والأساتذة خاصة.

● إذن في رأيكم، ما هي أسباب تراجع المقروئية في أوساط الأساتذة والطلبة؟

● أعتقد أن من بين أسباب تراجع نسبة المقروئية الظرفية السياسية سواء تعلق الأمر بالمغرب أو بباقي دول العالم، فبعد الاستقلال كان الفعل القرائي مرتبطا أشد الارتباط بالتحرر الفكري وكانت القراءة مرتبطة أساسا بالفعل النضالي، وكان الإقبال كبيرا على اقتناء كتب الثوريين وكانت الممارسة النضالية حاضرة وبالتالي كان هم هؤلاء الاطلاع والقراءة للآخرين لمواكبة التطور الذي كان العالم سائرا فيه وكان العامل الإيديولوجي حاضرا بقوة في الساحة الطلابية وكان الأساتذة هم من يدفعونهم إلى الانفتاح على الكتب وكان مفروضا على المناضل أن يكون ملما بالعديد من الأدبيات السياسية الاشتراكية واللينينية والليبرالية وهو ما طور وزاد من الإقبال على اقتناء الكتب، وساهم ذلك في انتشار الكتب، والترويج لها ودفع إلى تعود الناس على الفعل القرائي، ثم إن انتشار الكتب تم في وقت لم تكن فيه وسائل الإعلام حاضرة بقوة كما هو الأمر الآن، ففي الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، كان البث التلفزي محدودا ولم يكن ينافس حضور الكتاب وكان التلفاز يعرض بعض البرامج الثقافية القليلة والمحدودة كالأفلام وبعض المسلسلات، بخلاف ما هو موجود الآن، إذ توجد قنوات معرفية تنشر الثقافة، قنوات متخصصة كالقناة الألمانية الفرنسية (ARTE) والتي تعرض الكثير من الأفلام الثقافية والوثائقية ذات الطابع الفكري والعلمي الفلسفي وتعتبر بوابة من بوابات المعرفة وهي من القنوات التي أصبحت تنافس الكتاب بنشرها أفكارا جديدة تتعلق بالمعرفة والثقافة العامة.

● إذن هل يمكن القول إن الأنترنت ساهم في تراجع المقروئية بمفهومها الكلاسيكي؟

● إلى حد ما، وإن كان الإقبال على الأنترنت ليس إقبالا متجانسا، إذ الأشخاص الذين يدمنون على ولوج عالم الشبكات العنكبوتية، ليسوا بالضرورة أشخاصا يهتمون بالفعل الثقافي ولا يبحثون دائما عن المعلومة، فالأنترنت يوفر المجهود ويقلل من الجهد المبذول في سبيل الحصول على المبتغى فهو يلخص المعلومات وأصبح بإمكان المبحر في عالم الإنترنيت الحصول على كم هائل من المعلومات بأقل جهد وبأقل تكلفة دون بذل مجهودات كبيرة، وهذا له دور سلبي على سوق الكتاب ويحد من انتشاره وتوزيعه، وبالمقابل نجد فئة قليلة هي التي مازالت مرتبطة بالكتاب وهي الفئة السابقة التي تربت في كنفه والتي كانت تعتبره من ركائز التعليم والمعرفة والثقافة، بخلاف الأجيال اللاحقة التي تعتبر الكتاب مجرد وسيلة للدراسة وبرامج دراسية، تلتزم بها مرحليا عوض الاعتماد عليها كركيزة أساسية للبحث والاكتشاف.

● ألا يشكل غياب الخزانات بالمؤسسات التعليمية عائقا حقيقيا في سبيل تنمية الفعل القرائي؟

● أكيد أن غياب خزانات داخل المؤسسات التعليمية باختلاف درجاتها يشكل أكبر عائق في سبيل ترويج الكتاب وتنمية الفعل القرائي وتحفيز التلاميذ على نهج سياسة قرائية، فالمفروض على المؤسسات التعليمية وخاصة الابتدائية منها، خلق مكتبات وخزانات وتخصيص حصص موجهة للقراءة ومنصوص عليها في الحصيص الزمني وفي كل المستويات الدراسية الأسبوعية للاستئناس والبحث والتعود على القراءة لتصبح هذه العادة من العادات السائدة داخل مؤسساتنا التعليمية ويجب أن تواكبها عادة القراءة حتى في المنزل، هناك طرق بيداغوجية لترسيخ الفعل القرائي، كأن يلجأ الآباء والأمهات إلى قراءة قصص جميلة وقصيرة لأطفالهم قبل نومهم من أجل زرع وخلق الرغبة في القراءة عند الأطفال منذ الصغر واكتساب الرغبة في اقتناء الكتب منذ وقت مبكر.

● في نظركم ما هي السبل الكفيلة بإعادة الاعتبار إلى الكتب؟

● هذا سؤال عريض، سيكون من المبالغة الإجابة عنه بعجالة، إذ يتطلب اتخاذ إجراءات من جهات متعددة إعادة الاعتبار إلى الكتاب بشكل عام والقراءة بشكل خاص، فالمفروض في وزارة الثقافة ووزارة الشبيبة والرياضة لعب دور إيجابي في هذا الاتجاه، والمفروض أن تعملا معا على اقتناء عدد كبير من الكتب من دور النشر وتعمل على توزيعها على دور الشباب والخزانات العمومية ومطلوب من الجماعات المحلية السير في الاتجاه ذاته والعمل على اقتناء الكتب ووضعها في الخزانات ودور الثقافة ودور الشباب والمراكز الثقافية وتشجيع المواطنين على التردد على هذه الفضاءات وقراءة المتوفر من الكتب حتى يكون الولوج إلى الكتاب سهلا وميسورا للأشخاص من ذوي الدخل المحدود، وتجاوز عقبة اقتناء الكتب لارتفاع كلفة اقتنائها.

أجرى الحوار : أحمد ذو الرشاد (الجديدة)

رأي

التربية على القراءة: مسؤولية من؟

القراءة مؤشر دال على مستوى تقدم الأمم، ومعيار محدد لدرجة مراتبها في السلم الحضاري، فهي المرآة التي نرى، من خلالها، اليوم مدى ما حققته وتحققه من تقدم وارتقاء، تلك الشعوب التي تقرأ بنهم؛ تقرأ في أي مكان، في البيت كما في الشارع، في محطة القطار أو خلال انتظار الحافلة، فليس لديها من الوقت ما يستحق الضياع، لكننا وبالتأكيد لا ننتمي إلى هذا الصنف من الشعوب القارئة،لأننا مجتمع يعتبر القراءة آخر ما يمكن التفكير فيه، لذلك فقد كنا ومازلنا نعيش أزمة قراء، أزمة سرت على كل لسان، وشهد بها البرنامج الدولي لقياس مدى تقدم القراءة في المدارس حين صنف تلاميذ المدارس المغربية في القراءة ضمن المراتب الأخيرة على المستوى العالمي، وهي النتيجة التي أحرجت الجهات الرسمية في البلاد؛ لكن، ما السبب في عزوف معظم المغاربة عن القراءة؟ هل يعود ذلك إلى الدولة وأجهزتها المسؤولة عن عدم إشاعة وسائل القراءة وتيسير إمكانياتها بين المواطنين؟ أم أنها مسؤولية الأسرة وما يمكن أن توفره لأطفالها من تنشئة على حب القراءة والإدمان عليها؟ أم هي مسؤولية المدرسة المغربية التي لا توفر المناخ المحفز على القراءة وتداول الكتاب؟ أم أنها مسؤولية الدولة والأسرة والمدرسة كلها وفي آن واحد؟

لقد كان بالإمكان أن يشكل المعرض الدولي للنشر والكتاب، المنظم في هذا الأسبوع بالمغرب، فرصة هامة جدا لإقامة عرس ثقافي كبير، يعرض فيه المنتوج الثقافي والفكري للزوار بصيغ وأشكال مشوقة وجذابة، ويفتح المجال لنقاش الجمهور من مختلف الأعمار مع الكتاب ودور النشر، ويكون فرصة لتصفح الكتاب وملامسته من طرف الكثير من الناس صغارا و كبارا ولو بدون شراء، إلا أن الدولة التي تشتكي من أزمة في القراءة في صفوف مواطنيها، وما يترتب عن ذلك من تخلف فكري وثقافي، تفوت هذه الفرصة السانحة للتثقيف، وللتربية على القراءة، باعتمادها الدخول إلى المعرض بالأداء دون أي تمييز، بل وباستعمال البطاقة الوطنية لتحديد الهوية أو الانتماء المهني، الشيء الذي يحرم العديد من الآباء، من مرافقة أبنائهم إلى المعرض، كما يؤثر في الزيارات المدرسية فيقلص من حجمها، وبذلك تكون الدولة قد كشفت عن قصور في النظرة إلى القراءة في بعدها الثقافي.

وهكذا، فإذا كانت الدولة لا تشجع على القراءة، فإن المدرسة، بدورها، تفتقر إلى المناخ المحفز على القراءة: من وجود خزانات مجهزة، وقيمين مدربين، وقاعات للمطالعة، وأندية للقراءة...وبذلك تتضافر الأسباب والنتيجة واحدة، تفاقم في أزمة القراءة، ويبقى الدور الأول والأساسي على ما يمكن أن تقوم به الأسرة المغربية في تربية الأبناء وتنشئتهم على حب القراءة.

إن الأسرة تلعب دورا كبيرا في تنشئة الطفل على العديد من القيم والعادات والسلوكات التي يتشبع بها بين أحضان أبويه ويتشربها في مناخ أسرته؛ فالأسرة التي تتوفر على خزانة بغض النظر عن حجمها، ويعيش فيها الطفل في كنف أبوين أو أحدهما مثابرا على القراءة، فإنه، بدون شك، سيجد في هذا الأب القارئ النموذج الجدير بالاقتداء، بحيث يبدأ في تقليد سلوك الأب في جلسته، وفي مسكه للكتاب، وفي طريقة قراءته، وذلك ما يشكل بداية الطريق لربط العلاقة بين الطفل والكتاب، سواء أكان متدرسا أو قبل سن التمدرس. وحتى تلعب الأسرة دورها الحقيقي في تربية ابنها على حب القراءة في سن مبكرة من طفولته، ينبغي أن تخصص حيزا في البيت لتكوين مكتبة خاصة به، تجمع فيها من الكتب والمجلات والقصص ما يدخل في اهتماماته، ويستجيب لميولاته، ويكون من اختياره، ويرى المتخصصون في سيكلوجيا القراءة، أن الأطفال الصغار تجذبهم أولا قصص الحيوانات، ثم قصص الخيال والبطولات والمغامرات، لتأتي، بعد ذلك، القصص الرومانسية، وينصحون بعدم التدخل في اختيارات الطفل أو الوقوف ضد رغباته، أو إجباره على قراءة قصص أو موضوعات لا يرغب في قراءتها ولو كانت ذات أهمية بالنسبة إلى الكبار.

المكي ناشيد ×

ومن المهم جدا تنظيم جلسات عائلية في بعض الليالي للاستماع إلى قراءات قصصية، وإثارة نقاش حولها بشكل جماعي أو مع الأطفال بشكل خاص، أو الإنصات إلى قراءات شعرية لقصائد مختارة ذات مسحة جمالية على مسامع الأطفال، أو إدارة نقاش حول مقال صحافي يثير اهتمامهم. فمن شأن هذه الأساليب وما شابهها، أن تبث في نفوس الأطفال حب القراءة، والرغبة في المداومة عليها.

وهي التجربة التي يمكن أن تنتقل إلى المؤسسات التعليمية، وفي هذا الصدد أتذكر تجربة لمعلم في سنوات السبعين، كان يعد بالفصل مكتبة يجهزها التلاميذ ويشرفون على تنظيمها وتسييرها، وعلى اختيار محتوياتها، وفي نهاية كل أسبوع دراسي، يتم تنظيم حصة قرائية لأحسن نص إبداعي من اختيار التلاميذ تنتهي بنقاش حول مضمون النص، وبتقييم لطريقة القراءة ومستوى أدائها، وهي الحصة التي كان يجد فيها التلاميذ متعة خاصة. لكنها، أيام خلت، كان فيها رجل التعليم أيضا، يقرأ، ويختار ما يقرأ، لنفسه أو لتلاميذه، أما اليوم، فقد صار المدرس مطوقا ومنمطا بالجدادات النمطية، فافتقد بذلك الكثير من مميزات الماضي وخصائصه التربوية والتعليمية.

على الآباء اليوم الذين ينفقون الكثير من الأموال حول تدريس أبنائهم بمدارس خصوصية، إضافة إلى دروس خصوصية بمدرسين خصوصيين، الشيء الذي يقيد حرية الطفل ويثقل كاهله، وبالنتيجة يورث لديه كل ذلك، الميل إلى التواكل والاعتماد على الغير في حل المشاكل وتذليل الصعوبات، عليهم أن يعلموا أن بإمكانهم تخفيض الإنفاق على تعليم أبنائهم إلى أكثر من النصف، مع جني نتائج تربوية هامة جدا، بإحداث خزانة بالبيت خاصة بأطفالهم، وتشجيعهم على قراءة الكتب التي يختارونها، وعلى التنقيب والبحث بأنفسهم عن المعرفة من أمهات الكتب، وبهذه الوسيلة وحدها، يكتسب الطفل عادة القراءة، وتنفتح أمامه آفاق التعلم الذاتي، وبذلك تترسخ لدى الطفل، مبادئ الاعتماد على النفس، والثقة في الذات. فالقراءة إذن مدخل أساسي للتعلم الذاتي. خلال المنتصف الثاني من القرن الماضي، لاحظت الدولة الفرنسية تراجعا في القراءة لدى مواطنيها، فنظمت، على إثر ذلك، تعبئة وطنية عامة رصدت لها إمكانيات مالية وبشرية هامة حتى تسترجع القراءة مكانتها في المجتمع الفرنسي، وهو ما ستفعله إنجلترا، بعد ذلك، ولو بصيغة مختلفة لمعالجة المشكل نفسه، وبذلك فإن إشاعة القراءة، واستهلاك المنتوج الثقافي لدى الأمم والشعوب المتقدمة، هي ضرورة حضارية قبل أن تكون ضرورة فردية، ضرورة اجتماعية قبل أن تكون ضرورة شخصية.

ونحن؟ ألم يحن الوقت بعد لنأخذ العبرة النافعة من الآخرين؟؟

× (باحث في التربية)

dafatir@gmail.com